المعبد الغريق

بقلم بدر شاكر السياب . دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٢

في كل مرة كنت اقرأ فيها لبدر شاكر السياب، كانت ترتسم امامي علاقة التجربة الشعرية الاولى بالتعبير اللغوي الحواري عنها . وكنت اخلص ، في كل مرة ، الى ان التراخي الزمني بين نضوج الحوار الداخلي عند الشاعر والافصاح عنه بالكلمة يكاد يكون معدوماً . لذلك جاء اداؤه الشعري وقد علق به الكثير من سديم التجربة الاولى . فالكلمة كأداة لنقل الفكر والاحاسيس لم تقلل من كثافة النأمة الداخلية ، ولم يقف الحرف حاجزاً في وجه الانفعالات المضمرة التي ارادت ان تنعتق من دخلة الشاعر ، لتعلن عن نفسها باللفظ .

هنا يصبح التعبير الشعري ، مع السياب ، شيئا لا تعبيراً عن شيء ، وتسقط ، بنتيجة ذلك ، الحدود بين الشكل والمضمون ، ويصبح محالا التفريق في القصيدة الواحدة بين النغم الداخلي والموسيقى الخارجية ، وتلتم مراحل التكون الشعري بالنسبة لما قبل عملية الخلق وتنصب جميعا في اصل واحد هو التحقق الشعري بالكلمة . وما ذاك الا لان الشاعر في سلوكه التوحيدي بين مرحلة التجربة الشعرية ومرحلة الافصاح عنها ، ينزع الى حقيقة الواحد الذي وجد بوجود الزمان كمفهوم انساني وكمضلة بشرية ، فيعمد الى نوع من الحلولية بين ذاته الشاعرة والكلمة ، طريقه الى الآخرين .

ومن هنا سوف اطل على « المعبد الغريق» ، لابحث فقط في المواقف الانسانية البارزة التي صدر عنها الشاعر والتي هي عين حقيقته الشعرية وصنو عالمه الفني . ولا يضير الديوان ان نحن انطلقنا في دراستنا النقدية له من الاثر كصنيع فني لنصل الى المواقف الانسانية الاولى ، لان التفرقة بين مايسمى حقيقة فنية تعبيرية ، ومايسمى اسساً نفسية ابداعية، لا قيام لها في شعر السياب . فهو ، كما سبق وبينا ، ينزع الى مبدأ التوحيد بين الاحوال الداخلية ، وما يرفدها وما يغذيها ، والمقتضيات التعبيرية عنها ، لانه ينشد بلوغ « الواحد » من خلال الكثرة ؛ ويرى ان اسقاط الحدود بين التجربة الشعرية الاولى والاشكال المتحققة بها هي الخطوة الاساسية لاقتبال الحلولية والذهول .

اما عن الاتجاهات الانسانية في الديوان ، فنحصرها في مواقف ثلاثة : موقف وجودي ، وموقف حضاري ، وموقف توحيدي .

الموقف الوجودي : يظهر لنا السياب في « معبده الغريق » وكأنه في قلب الوجود ، في معبد هو الوحيد من بين اشياء العالم لم يغص الى اللجة . فالشاعر في وحدته الحية يحس قيام الاخرين فيه ، ويبلغ الى صميم المشكلة التي تؤرق الانسان ، الى مبدأ العلاقات الواهية التي تربط بين الذات والعالم ، بين الحياة والموت ، بين النسي والمطلق ، بين الخير والشر ، بين الماضي والحاضر . فيكشف عن هذا المبدأ من خلال خاصة انسانية مهمة هي خاصة عدم اكتمال الكائن ، او ما يسميه هيدغر بالـ unganzheit . ويعرف الشاعر من خلال هذه الخاصة الملازمة لوجوده ، انه كائن في العالم

وانه بالتالي كائن للموت ، وان كل محاولة من جانبه لاكتشاف علائق ثابتة تصل بين حدود العالم وما وراءه ، بين التغير والثبات ، ليست الا محاولات افتراضية ضعيفة .

وتنتشر خاصة عدم اكتمال الكائن الانساني في مجمل قصائد الديوان ، حيث تظهر في الاصوات البشرية الكسيرة التي تشير الى القبح وقد تسربلت به وجوه الناس (ص ٣٨) ، والى اشتياق تلك الوجوه الى ماء العالم الخارجي وضوئه المحيي . « فجيكور »، او الجنة المفقودة ، موارة بالجمال ودخلة الشاعر في تحرق ونقصان (ص ١٠٩) . اما عن الحب الذي ينال به الانسان ما يريد (ص ٤١) فهو ملمس دودة واذين اعصار (ص ٢٩) . وما ذاك الا لان الهرم مصاحب للوجود الممكن والواجب، فالطفل شيخ يولد فلا يشيب (ص ٥٠)، والله يكبر ويبيض في الظلام (ص ٥١) ،والحب عرض ملحق بالجواهر يصيبه موت ذريع . ويعي الشاعر اخيرا ان في كائن الانسان شيئا من التأجيل والمماطلة ، ان لم يكن من العجز في استلام المبادرة . فاعمال الاهواء والشهوات التي تغرق في كل يوم كنزاً جديداً من كنوز العالم « ستشبع الف طفل جائع ، وتقيل آلافاً من الداء وتنقذ الف شعب من يد الجلاد لو ترقى الى فلك الضمير » (ص ٩٧) . ولكن الضمير ينصت الى ما يحققه الطغاة من داخل جدر كثيفة لا منفذ لها على سير التاريخ .

ان احساس السياب بعدم اكتمال كائن هو الذي اكسبه صفة الوجود ككائن في العالم ،وان محاولته الدائبة لتجاوز ميزة عدم الاكتمال في شخصه الانساني هي التي ولدت في نفسه عنصر القلق . فحقيقة الشاعر لم تبلغ ، في هذا الديوان، وجودها المكتمل ، لانها لو بلغته لأدى هذا التحقق الى ضياع الشاعر ككائن في العالم. ونحن نجد ان صاحب « المعبد الغريق » قد تحرك ضمن حدود الزمان والمكان ، وحاول ان ينزع عن العالم قشوره الصدئة ، ليعانق ابعاده الصافية .

ولما كان شاعرنا موجودا في قلب العالم ، فهو كائن للموت (ص ١٦٠) . والموت عنده لا يعني مطلقاً خروج الكائن من العالم ، بل ضياعه ككائن في العالم . هنا تبرز الخاصة الوجودية في اجلى مظاهرها . فالسياب لا يرى في الموت ما تراه النزعة الشعرية الرومنسية ، من ان الذات تتمنى حلول الموت للتخلص من اسر العالم وتفلت من رغبات الارض . فالرومنسي يوجد حالة شعورية بعد الموت يعجل السفر اليها . اما صاحب « المعبد الغريق » فيرى ان في الموت قضاء على الكائن ، وبالتالي على اية حالة شعورية ممكنة (ص ٢٥). ويرى ان الانسان لم يفقد بحدوث الموت هويته في العالم وشوقه الى الاكتمال الانساني (ص ٥١ – ٥٢) . لذلك كان الشاعر الرومنسي يسعى الى ان يكتمل ، ولكن خارج حدود العالم، خارج انسانيته . اما شاعرنا فهو طلعة الى ان يكتمل بالحياة ، في قلب العالم ، لانه لم يولد فيه ولادة كاملة .

ان فكرة الهم المفزع من حلول الموت في خلايا الوجود الانساني الحي ، لها اذاً ما يبررها في موقف السياب ؛ خصوصا وان الحياة في تهليلها ورقصها لا تستطيع ان تنزع اكفان الموت من الحفر العتاق (ص ٢٥) ، ولا ان توقف لحظة صراخ حادي العيس (ص ٢٤) ، ولا ان تحتال على ذلك الدلال الذي جاء يريد اتعابه (ص ٣٠) . فالموت هو المستحيل الذي يذهل (ص ١٣) ، والموتى هم كالبراعم يلتفون على اسرارهم (ص ٢٢) ، حتى يتوارى السد ، ويسقط السؤال ، وتزرع الى الابد حبة الصمت (ص ٢٨) .

والموت ، فوق هذا، تناقض وخسارة . ولكنه بالنسبة الى الشاعر خسارة تجري على الاحياء

اكثر مما تجري على الاموات . فموت « وفيقة » تجاوز الحادثة الفردية ليصبح فكرة تعذب الشاعر في كل لحظة . ذلك انه بمقدار ما يكون الموت فكرة ، اي مدركا انسانيا ، يظل الموت جذريا موتي . وهذا يعني ان باستطاعته ان يتهددني دوما ، وان يحتويني في كل حين ، لانه فكرة في الضمير الحي ، لا لانه موت الآخرين .

ويتولد من مشكلة المـــوت عند السياب حنين مأساتي الى الطفولة . ان يسير الى الفناء ، كلما درج في ســـاق عيشه الى التحقق ، الى الولادة الكاملة . فهو تعب من صراعه الكبير ، تعب من رائحة الهزيمة . الطفل فيه يناديه ، والطفل هنا هو الامس ، هو القدر الذي جعله يختار الطفل ، هو رمز الاذعان والانطواء الخجول (ص٣٦). ويحن الى الطفولة ، لانها امكان محض . ان ما لم يصره الطفل فلا يمكن ان يضاف اليه . امـــا النضج ففعل وتحقق ، والانسان في طريقه الى النضج يصير موتا .

عندهـــا ينكفىء الشاعر الى الوراء ليحيى اطوار ماضيه ، معرضا عن مستقبل ايامه . وجه المأساة هنا انه ، في عودته الى الماضي ، يطل عليه بوجه متغضن ، بوجه صار موتاً الى حد كبير . فيتلون عندها الوجود الخـــارجي بالوان الفناء ، وترتمي « جيكور » على حدقة الرؤيا عجوزاً شمطاء (ص ١٤١) ؛ ويأسى الشاعر لاطلالته هذه ، ولعودته بغنيمته الخيبـــة : خيبة « الموتى اذا رجعوا الى الدنيا القديمة » (ص ٨٥) .

الموقف الحضاري : في الديوان قصيدتان ، « المعبد الغريق » و « ابن الشهيد » ، تشيران الى الموقف الحضاري الذي يقفه السياب من الانسان ومن شعب بلاده خاصة . فهو الذي انتهى الى ان الانسان كائن للموت ، والى ان فكرة الزوال بمفهومها العام مقيمة في صميم وجوده . الرغبة في الحياة ، وحدها ، افلتت من اسر الزوال . فهي تحيى خارج حلبـــة الموت ، وتصيخ الى الهاجس الوافد عليها من العراق . غير ان الصوت المدوي ، في صميم هذه الرغبة ، متكسر متهدج . انه الحقيقة المرة التي تردى فيها الانسان بفعل اعمال الطغاة . فالسطوة تنزع الى الشر ، وتطيح بالقيم الانسانية العليا التي بها يتحقق الافراد ويبلغون سلامـــا واطمئنانا .

وتتوضح معالم الصوت في مجرى قصيدة « المعبد الغريق » . فاذا هو طين نائح يـــود العودة الى الحياة بعد ان نثره رحم « البحيرة » :

تفجر باللظى رحم البحـــيرة ينثر الاسماك
والدم مرغيا سئما (ص ٩٤) .

و « البحيرة » هنـــا رمز السطوة الهادمة والحقد القاتل . انها تمنع دخول الزمن الى « المعبد » ، الى الانسان الجديد ، فيحدب على الماضي ليأخذ منه عبرة للحاضر ، ويميل الى تحرير الارقاء بمال الدنيا (ص ٩٧) .

كأن الماء في ثبج البحيرة يمنع الزمنا
فـــلا يتقحم الاغوار ، لا يخطو الى الغرف (ص ٩٧) .

شهد الشاعر في قصيدة « المعبد » مـــا شهده الشيخ الراوي عبر التاريخ من « فجور انثى واتقاد متوج بالثأر » (ص ١٠٠) . وعاين الحقد الطامي في مجازر العراق ، وتفطرت نفسه لشهداء الموصل ، وبكى مع الام الثكلى في مراغة الالم . انه يدعو الى ان يشق في حصار الانسانية متنفسا لها تسعر من خلال سعادتها :

هلم نشق في الباهنج حقل الـــماء بالمجذاف (ص ١٠٣) .

و « الباهنج » هو النهر المؤدي الى « البحيرة » ، هو النبع الذي يتجدد بـــه الطغاة ، ويعبون منه « ليحطموا صوت كل الانبياء » (ص ١٠٥). ويتمنى الشاعر حدوث المعجزة قبل ان تتلاشى رغبته في الحياة ، وقبـــل ان تنصل الوان شمسه

ويتبدد عالم احلامه (ص ١٠٤) .

الشيء المؤكد ان الاحداث قد انبنت على رؤيا الشاعر . ففارت مياه « البحيرة » وبرز المعبد قشيبا مبرأ من كل عيب .

فقصيدة « المعبد الغريق » هي تجسيد لعلاقة الجماعة البشرية بالتاريخ الملوث ، واشارة الى دور الشعر في تخطي الواقع والدخول الى فلك الحلم والرؤيا ، لتشييد ما لا يمكن ان يكون قائما في منطق الاشياء . فما يراه الشاعر او يتمناه من خلال الرؤيا ، هو المؤكد الذي لا يخطىء . وهذا ما عبر عنه هولدرلين بقوله : « ان يكون الشاعر نفسه ، هذه هي الحياة . ونحن الآخرين لسنا الا الحلم » .

الموقف التوحيدي : ان الموقف الحضاري هو جزء من الموقف التوحيدي ، والموقف التوحيدي ناشيء من معضلة الموت التي طبعت بمجمل قصائد الديوان بطابع آسن مرير .

وجد الشاعر نفسه في ضيق ، بعد ان سلم بموت المطلقات في العالم وبموتها في الذوات المنعكسة فيها . وادرك انه موجود لانه خطوة ستحصل . الا ان هذه الخطوة لم يردها عبورا نحو الموت ، فمال الى شعبه يحتمي به من اجل محتم . وتبدى حبه للحياة وتعلقه بها من خلال حبه لبلاده ولشعبه . انه يود لو ينسرب في عينيه ضوء القمر من « جيكور » ، حتى يحس ارتعاش الحلم ينبع من روحه وينسكب (ص ١٠٩) ، غير ان توحده مع المحيط الحي لم يتم ، فذاته خارج دورة الوجود ، هي غيمة تشتاق الى الارض « فتأبى الارض ان تجيبها » (ص ٤٣) .

لم يبق امامه الا ان يتوحد مع الخارج عبر الموت . فالموت صنو الله يكتب باسمه الآجال (ص ١٥٢) .وهذا التآلف يبدو لنا في شكل وحدة شهود على تباين في الوجود (ص ٧) ، ثم لا يلبث ان ينتهي الى وحدة وجود تامة (ص٩). فيرتمي الشاعر في حضن العالم السفلي ليتعاطف مع الاموات . وهو في مناجاته لهم محب للحياة ، مفتش عنها في حضور الفناء والعدم .

ان السياب ، في هذا الديوان ، شاعر الموت دون منازع ، لانه طفل الحياة . هو ذات فردية سيرت نفسها الى شيء لم تقبل بـه ، ولم ترد ان تكونه . وهي لم تعرف الحياة منطلقا ، فقادت نفسها الى الموت تنطلق منه . ان في دوام موت الشاعر خلاص« معبده » ، وفي اقراره بعدم تحقق ذاته تحققا كليا ، تبريرا لوجوده في العالم، ودليلا لقيام شعره على الحقيقة .

اميل المعلوف